PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(10):639-656
ISSN: 0033-3077

Ibn Umayra Al-Makhzoumi and his Andalusian Diwaniyah letters

Mohammed Benmammar

Professor at the University of Oran 1 – Ahmed Benbella (Algeria)

benmammar2005@yahoo.fr

Received: 06/03/2024 **Published: 10/10/2024**

ABSTRACT: The aim of this study is to present and analyze a collection of Andalusian letters from Diwaniyah produced, in the first half of the 7th century AH, by Ibn Umayra al-Makhzoumi, the famous writer passionate about history and literature., known for the elegance of its ornate style and the abundance of its language. He lived an administrative and scientific life full of achievements and events, since he held high positions in various countries, during which he traveled to numerous cities in Andalusia, the Maghreb and Tunisia, and has witnessed major political events. It represents an important link and a distinct stage in the chain of development of Andalusian literature, which reached, in its time, the peak of its development in all its aspects. This stage was completed and had its own character; it was the stage which opened the way for the emergence of a generation of writers known in the 8th century AH. The letter has a particular structure and a well-known artistic form, and certain characteristics which are like the fundamental pillars of the letter, which are the beginning, the body, then the end or conclusion, and each of them has its own character.

Keywords

Ibn Umayrah, the literature of letters, the letters of Diwaniyah, Andalusia, 7th century AH.

ابن عميرة المخزومي ورسائله الدّيوانية الأندلسية

محمد بن معمر

أستاذ التعليم العالي، جامعة وهران1، أحمد بن بلّة

ملخص

الهدف من هذه الدراسة هو عرض وتحليل لمجموعة من الرسائل الدّيوانية الأندلسية التي أنتجها، في النصف الأول من القرن السابع الهجري، ابن عميرة المخزومي الأديب الذائع الذكر، المولع بالتاريخ والأدب، المعروف بأناقة أسلوبه المزخرف وغزارة لغته. وقد عاش حياة إدارية وعلمية حافلة بالأعمال وزاخرة بالأحداث، حيث تقلّد مناصب سامية في دول مختلفة، وتنقل خلالها في كثير من مدن الأندلس والمغرب وإفريقية، وعاصر أحداثا سياسية كبرى. وهو يمثّل حلقة مهمة ومرحلة متميزة في سلسلة تطور أدب الرسائل الأندلسي الذي بلغ، في عصره، أوج تطوره من كل النواحي، واكتمل بناء مدرسته التي أصبح لها طابعها الخاص، وهي أشبه ما تكون بمدرسة القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني المشرقية والموازية لها تقريبا من الناحية الزمنية، وهي المدرسة التي مهدت لظهور جيل من الكتاب عرفهم القرن الثامن الهجري فكانت قدوة مباشرة ونموذجا حيا لهم. وأدب الرسائل لون من ألوان النثر الفنّي الجميل الذي يُعدّ ندّا للشعر وكفؤا له، وللرسالة الفنّية بناء خاص وشكل فنّي معروف، وسمات معيّنة هي بمثابة الأركان الأساسية للرسالة وهي البداية أو الصدر والمتن ثم النهاية أو الختام، ولكل واحدة منها طابعها الخاص.

الكلمات المفتاحية: ابن عميرة، أدب الرسائل، الرسائل الديوانية، الأندلس، القرن السادس الهجري.

مقدمة:

كان أدب الرسائل من أسبق ألوان النثر الفنّي إلى الظهور في الأندلس، فقد اهتم العرب الفاتحون لتلك البلاد بالمراسلات التي أصبحت تُعرف فيما بعد بالرسائل الديوانية، حيث استغلّوا تفوّقهم في الخطابة والشعر والكتابة. وكان نشوء الدولة الإسلامية في الأندلس وتعدّد مهامها ووظائفها السياسية والإدارية حافزا قويا لظهور أدب الرسائل لتأدية هذه المهام والوظائف. وقد ظهر الجيل الأول من الكتّاب الأندلسيين منذ نهاية النصف الأول من القرن الثاني الهجري.

وفي القرن الثالث الهجري تطور أدب الرسائل تطورا ملحوظا من الناحيتين الموضوعية والفنية، بفضل التطور الثقافي والحضاري للأندلس من جهة، وتأثّر هذا الفن بنظيره المشرقي، الذي تزعمه عبد الحميد الكاتب آنذاك، من جهة أخرى. ثم جاء القرن الرابع الهجري الذي كان بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور أدب الرسائل إذ فاق تطوره القرن السابق، حيث وُضِعت فيه أسس نهضة أدب الرسائل في الأندلس التي خطت خطوات جبّارة في القرن الخامس الهجري عصر أمراء الطوائف والمرابطين.

ثم جاء القرنان السادس والسابع الهجريان عصر الدولة الموحدية، حيث عاش ابن عميرة مع مجموعة من كتّاب هذا العصر الذين يمثلون حلقة مهمة ومرحلة متميزة في سلسلة تطور الأدب الأندلسي، وهو العصر الذي بلغ فيه أدب الرسائل أوج تطوره من كل النواحي واكتمل بناء مدرسته التي أصبح لها طابعها الخاص، وهي أشبه ما تكون بمدرسة القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني المشرقية والموازية لها تقريبا من الناحية الزمنية. ثم إن هذه المدرسة هي التي مهدت لظهور جيل من الكتاب عرفهم القرن الثامن الهجري فكانت قدوة مباشرة ونموذجا حيا لهم أمثال ابن الخطيب والشريف الغرناطي وابن شبرين وعبد المهيمن الحضرمي وغيرهم.

وأدب الرسائل لون من ألوان النثر الفنّي الجميل الذي يُعدّ ندّا للشعر وكفؤا له، وللرسالة الفنّية بناء خاص وشكل فنّي معروف، وسمات معيّنة هي بمثابة الأركان الأساسية للرسالة وهي البداية أو الصدر والمتن ثم النهاية أو الختام، ولكل واحدة منها طابعها الخاص، والرسالة تقصر وتطول دون أن يؤثّر ذلك على بنائها الفنّي. وكتابة الرسائل الفنية تتطلب من منشئها استخدام طاقات فنية مختلفة تتعلق بالدقة في اختيار الألفاظ وحسن تنميقها وحلاوة تركيب الجمل، وصياغة العبارات في تأليف المعاني، والموازنة، بينها وبين الكلمات التي تعبّر عنها إلى جانب توفير الإمتاع الفنّي لنفس القارئ[1]. وعلى هذا النحو سار ابن عميرة المخزومي في كتابة رسائله الديوانية والإخوانية، وذاع صيته في سماء الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس وبلاد المغرب على مدى القرون اللاحقة حيث تناقلت المصادر هذه الرسائل.

1- ابن عميرة صاحب الرسائل

لعل أهم الترجمات التي كُتِبت عن أبي المطرّف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي، الذي عاش بين سنتي 582-658 هـ/1186- 1260م، هي التي كُتِبت في عصره سواء منها ما كُتِب في حياته أو بعد وفاته بقليل، ولعل خيرها تلك التي كتبها ابن عبد الملك المراكشي[2]. ويعتبر العصر الذي عاش فيه ابن عميرة من أحفل العصور بالأحداث التاريخية في الغرب الإسلامي عامة والأندلس خاصة.

1) مبارك زكي، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، (بيروت: دار الجيل، 1975)، ص 10. فايز عبد النبي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ط1. (عَمّان: دار البشير للنشر والتوزيع، 1989)، 85.

2) تُنظر ترجمته عند:
- أبو عبد الله محمد ابن الأبار، تحفة القادم، تح. إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986)، 209.
- ابن سعيد المغربي، اختصار القدح المعلى، تح. إبراهيم الأبياري، (القاهرة: دار الكتاب المصري، 1980)، 42.
- ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، تح. محمد بن شريفة، (بيروت: دار الثقافة، 1973)، ج1: 150.
- أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية، تح. رابح بونار، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1981)، 250.
- أبو محمد عبد الله التجاني، رحلة التجاني، (تونس: المطبعة الرسمية، 1958)، 90.
- أبو عبد الله محمد ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002)، ج1: 62.
- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب، (القاهرة: دار التراث، 1972)، ج1: 206.
- خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000)، ج 7: 89.
- محمد بن شريفة، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره، (الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1966).

وقد أجمع مترجموه على تحليته بالنسب المخزومي ومنهم معاصره وابن بلده ابن الأبّار حيث يقول: "وكان بجزيرة شقر بنو عميرة المخزوميون بيت شيخنا القاضي الكاتب أبي المطرف أبقاه الله"[3]. وكانت ولادته في شهر رمضان بجزيرة شقر القريبة من شاطبة، بينها وبين بلنسية ثمانية عشرة ميلا شرق الأندلس، وهي الجزيرة التي تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون وغيرهم بكل إعجاب لجمال موقعها وسحر طبيعتها.

وأتيحت لابن عميرة الفرصة في هذا العمر الطويل ليصيب من العلم أوفر نصيب سمح به زمانه، ويمكن التمييز في حياته الدراسية بين ثلاث مراحل: الأولى تتميز بالإقبال على الثقافة الدينية بوجه عام، والثانية تبرز فيها العناية بالثقافة العلمية العقلية، والأخيرة يظهر فيها الجنوح نحو الثقافة الأدبية، وهو ما أجمله ابن عبد الملك في النص التالي: "وكان في بداية طلبه للعلم شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ أهله، ثم تفنن في العلوم ونظر في المعقولات وأصول الفقه، ومال إلى الآداب وبرع فيها"[4].

بعد أن فرغ ابن عميرة من حياة الدّرس والتحصيل العلمي وانتهى من التنقل بين شقر وبلنسية وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها بحثا عن الشيوخ، رجع إلى بلنسية يروم الاستقرار والحصول على وظيفة تناسب ثقافته وطموحه، "ذلك أن ابن عميرة كان منذ البداية يسعى وراء خطة الكتابة لما كانت توفره لصاحبها من الثراء والنفوذ والجاه والسلطان، وللمكانة الرفيعة التي كان يحظى بها الكاتب في المجتمع الأندلسي"[5].

استهل ابن عميرة حياته الإدارية بالكتابة عن والي بلنسية السيد أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن في سنة 608هـ/1211م، وفي سنة 617هـ/1220م انتقل إلى إشبيلية وكتب عن واليها الموحدي السيد أبي العلاء الكبير. وفي سنة 620هـ/1223م عاد إلى بلنسية وتولى خطة الكتابة عند الوالي السيد أبي زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، وظل متوليا لها حتى سنة 626هـ/1228م وهي السنة التي ثار فيها الرئيس أبو جميل زيان بن سعد بن مردنيش الجذامي على الوالي الموحدي وافتك منه بلنسية، وقد احتفظ الأمير الجديد بابن عميرة كاتبا عنده حتى سنة 628هـ/1230م تاريخ انتقاله إلى جزيرة شقر حيث اشتغل مؤقتا بالكتابة عن واليها أبي عبد الله بن مردنيش. وفيما بين سنة 630 هـ/1232م وسنة 633هـ/1235م اشتغل بوظيفة القضاء في مدينة شاطبة، وفيما بين سنة 633 هـ/1235م وسنة 636هـ/1238م كاتبا في مرسية، ومنها توجه إلى غرناطة آخر مرحلة في طريقه إلى العدوة المغربية حيث ينتهي الفصل الأول من حياة ابن عميرة الإدارية في الأندلس[6].

غادر ابن عميرة الأندلس وعبر البحر إلى المغرب يحدوه الأمل في الحصول على عمل في بلاط بني عبد المؤمن بمراكش بعد أن فقده في بلاده التي اضطربت أحوالها وسقطت الكثير من قواعدها في يد النصارى. وكان حلوله بمدينة سبتة في أول سنة 637هـ/1239م حيث أقام زمنا يسيرا عند واليها صديقه الرئيس أبي علي الحسن بن خلاص البلنسي. وفي السنة نفسها ورد على الخليفة الموحدي الرشيد أبي محمد عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس المأمون (630-640هـ/1232- 1242م) وصحبه أثناء عودته من مدينة سلا إلى حضرة مراكش[7].

واستكتبه الرشيد مدة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة وقلّده قضاء مدينة هيلانة شرق مراكش، وقد تأثر ابن عميرة بهذا العزل عن خطة الكتابة وشكا ذلك إلى أصدقائه في رسائله الإخوانية وقصائده الشعرية التي تفيض بالحزن والأسى وندب الحظ. ويبدو أنه عبّر عن تبرّمه بهذا الإقليم لدى بعض حاشية السلطان فتوسطوا لديه عنده حتى نقله سنة 639 هـ/1241م إلى قضاء الرباط وسلا، وأقام

3) أبو عبد الله محمد ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1967)، 168.
4) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1: 152.
5) بن شريفة، أبو المطرف، 85.
6) المرجع نفسه، 85-115.
7) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1: 156.

يتولاّه إلى أن توفي الرشيد وخلفه أخوه الخليفة الموحدي العاشر أبو الحسن السعيد (640-646هـ/1242- 1248م) فأقرّه عليه مدة ثم نقله إلى قضاء مدينة مكناسة الزيتون.

ولما بايع أهل مكناسة الأمير أبا زكرياء الحفصي، كان القاضي أبو المطرّف هو الذي كتب نص البيعة في 20 ربيع الأول 643هـ/1245م، وحين قام إليهم الخليفة السعيد بحنق عظيم بادروا بطلب العفو واعتذروا عما بدر منهم وبايعوه من جديد وكتب نص البيعة ابن عبدون في ذي الحجة من السنة نفسها[8].

وبعد مقتل الخليفة الموحدي السعيد في صفر سنة 646هـ/1248م، اغتنم ابن عميرة تلك الظروف وغادر مكناسة قاصدا مدينة سبتة، وفي طريقه إليها سُلِبت منه ثروته في فتنة بني مرين الذين بسطوا نفوذهم على المغرب الشرقي وكانت الدولة الموحدية في ذلك الوقت عرضة لهجماتهم. وقد كتب إلى الشيخ أبي الحسن الرّعيني يعلمه بهذه الحادثة وأن ماله المنهوب قد بلغ أربعة آلاف دينار وكان ورقا وعينا وحليا[9].

كان ابن عميرة كثير التطلع إلى إفريقية معمور القلب بسكناها مذ فارق جزيرة الأندلس، لذلك وبعد أن أقام فترة قصيرة في سبتة عند واليها الرئيس الأندلسي ابن خلاص الذي اشتغل بالكتابة عنه فيما يبدو، ركب البحر متوجها إلى إفريقية حيث ينتهي الفصل الثاني من حياته الإدارية في المغرب. ووصل مدينة بجاية في شهر جمادى الآخرة سنة 646هـ/1248م ودخل على صاحبها الأمير أبي يحيى ابن الأمير أبي زكرياء الحفصي وكان صاحبها لأبيه. وأقام ابن عميرة في بجاية حوالي سنتين يعلّم ويدرّس، وكان الطلبة أثناء ذلك يقرأون عليه تنقيحات السهروردي في أصول الفقه التي لم يكن يتعرض لإقرائها إلا من له ذهن ثاقب[10]. وشارك في المجالس العلمية التي كانت تنعقد بمنزل صديقه ابن محرز البلنسي شيخ الجماعة الأندلسية يومئذ، وكان يحضرها أقطاب الأندلسيين وفي مقدمتهم ابن الأبار وابن الجنان وابن سيد الناس وغيرهم[11].

انتقل ابن عميرة من بجاية إلى مدينة تونس حيث مال إلى صحبة الصالحين بها والزهاد أهل الخير برهة من الزمان، ثم نزع عن ذلك[12]. وقد تغلبت عليه الرغبة في خدمة الملوك فقنع بوظيفة القضاء في الأقاليم، فتقلده في الأربس وفي قسنطينة ثم في قابس حيث طالت مدته. واستدعاه الأمير الحفصي المستنصر بالله محمد بن أبي زكرياء (647-675هـ/1249- 1276م) وصار من خواص الحاضرين بمجلس حضرته ومن فقهاء دولته. واستطاع ابن عميرة أن ينعم في هذه الفترة الأخيرة من عمره بالحياة السعيدة التي كان ينشدها في ظل الأمير الحفصي، سيما وأن تونس كانت تعيش يومئذ عصرها الذهبي من مختلف الوجوه. وظل ابن عميرة بالمنزلة الرفيعة من الدولة الحفصية والمكانة العالية عند أهل العلم والأدب إلى حين وفاته بتونس في 20 من شهر ذي الحجة سنة 658هـ/1260م[13].

تلك هي أبرز معالم سيرة أبي المطرف ابن عميرة المخزومي الذي عاش حياة إدارية وعلمية حافلة بالأعمال وزاخرة بالأحداث، حيث تقلّد مناصب سامية في دول مختلفة، وتنقل خلالها في كثير من بلدان الأندلس والمغرب وإفريقية، وعاصر أحداثا سياسية كبرى. ولكنها كانت حياة مضطربة متقلبة وهي ظاهرة عامة اتسمت بها حياته في كل أطوارها، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أبناء عصره ووطنه. ويبقى ذلك الأديب الطائر الذكر، المولع بالتاريخ والأدب معروفا لدى القاصي والداني بأناقة أسلوبه المزخرف وغزارة لغته.

اشتهر ابن عميرة المخزومي بثقافته الواسعة والمتنوعة، فقد كان خزانة من خزائن العلوم متفننا في منقولها ومعقولها، مدققا

8) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب (قسم الموحدين)، تح. إبراهيم الكتاني وآخرون، (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985)، 373.
9) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1: 179.
10) الغبريني، عنوان الدراية، 253.
11) بن شريفة، المرجع السابق، 149.
12) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1: 179.
13) المصدر نفسه، ج 1: 180.

في أصولها وفروعها، محدثا مكثرا، راوية ثبتا، متبحرا في التاريخ والأخبار، مضطلعا بالأصلين، قائما على العربية واللغة، بارعا في الأدب وفنونه، مولعا بعلوم الفلسفة والمنطق والفلك والطب. وكانت ثقافته الدينية والعلمية العقلية والأدبية الواسعة نتيجة حياة طلب وتحصيل طويلة، ناهيك عن تقلده المناصب السامية التي مكنته من استنساخ النوادر ودراستها، واهتمامه بقراءة الجديد من إنتاج معاصريه المشارقة والمغاربة، فجاء إنتاجه العلمي ثمرة لتلك الثقافة التي ألّف في حقولها المعرفية مجموعة من التآليف في التاريخ والأدب والبلاغة هي:

ـ كتاب التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات: وهو كتاب ألّفه في الردّ على "كتاب التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن" من تأليف أحد معاصريه المشارقة وهو أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني من أعلام البلاغة في القرن السابع الهجري وصاحب علم المعاني والبيان، وقد انتهى من تأليفه في شهر رمضان سنة 637هـ/1239م، ويعتبر كتاب التبيان من المصادر المعروفة في علم البلاغة إذ وجد طريقه إلى الغرب الإسلامي بزمن يسير بعد تأليفه، فانبرى ابن عميرة للردّ عليه.

ـ تعقيب على كتاب المعالم للفخر الرّازي: وهو من مؤلفات ابن عميرة المفقودة اليوم، وقد ورد العنوان عند بعض الذين ترجموا له بصيغ مختلفة ولكنها ألفاظ متقاربة. فابن عبد الملك وابن الخطيب يستعملان كلمة "تعقيب"، بينما يصفه ابن فرحون[14] بأنه "ردّ"، أما الغبريني الذي جعله "تعليقا" فقد اطلع عليه وقال عنه: "وقد رأيت له تعليقا على كتاب المعالم في أصول الفقه لا بأس به، وهو جواب لسؤال سائل، وهو مكمّل لعشرة أبواب حسبما سأل السائل"[15]. ويدل هذا الكتاب على ولع ابن عميرة بالردّ على أعلام المشارقة من معاصريه، كما يؤكد إلمامه بالعلوم العقلية والجدلية وتضلّعه فيها.

ـ تاريخ ميورقة: وهو أول كتاب ألّفه ابن عميرة في التاريخ، وقمنا بدراسته وتحقيقه ونشرته دار الكتب العلمية[16].

ـ اقتضاب من تاريخ المريدين: وهو ثاني كتاب في التاريخ ألّفه ابن عميرة بالإضافة إلى تاريخ ميورقة، ويعتبر من المؤلفات المفقودة اليوم. وقد ورد هذا العنوان عند ابن عبد الملك في الذيل[17] وعند ابن الخطيب في الإحاطة[18]، أما المقري فقد ذكره في النفح قائلا: "وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة"[19]. ولسنا نعلم هل اطّلع المقري على هذا الكتاب كما اطلع على تاريخ ميورقة ونقل عنه أم لا، كما أننا نجهل الدافع الذي جعل ابن عميرة يقدم على اختصار تاريخ المريدين.

أما الأصل المُختصر فهو من تأليف أبي مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي المشهور بابن صاحب الصلاة المتوفى سنة 577هـ/1181م الذي ألّف كتابين في التاريخ: أولهما كتاب ثورة المريدين الذي اختصره ابن عميرة، والثاني كتاب تاريخ المن بالإمامة الذي حقق السفر الثاني منه عبد الهادي التازي ونشرته دار الغرب الإسلامي، وهو الجزء الباقي من الكتاب. وقد أشار ابن صاحب الصلاة في هذا الجزء من المن إلى كتابه تاريخ المريدين في سبعة مواطن، في ستة منها أورده بعنوان تاريخ المريدين، وفي الموطن السابع والأخير ذكره بعنوان ثورة المريدين[20]. وبهذه التسمية الأخيرة أشار إليه ابن الأبار ونقل عنه في الحلة السيراء[21]. وسمّاه ابن سعيد "تأريخ الدولة اللمتونية" في تذييله على رسالة ابن حزم[22].

ـ رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية: عُمدتنا في هذه الدّراسة، ويقع الكتاب في جزئين ويتألّف من 278 رسالة ديوانية وإخوانية،

14) ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب، ج 1: 207.
15) الغبريني، عنوان الدراية، 253.
16) أبو المطرف أحمد ابن عميرة، تاريخ ميورقة، تح. محمد بن معمر، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2007). وقد تمت ترجمته إلى اللغة الكطلانية ونشرته جامعة جزر البليار بإسبانيا سنة 2008م، ثم إلى اللغة الاسبانية ونشرته الجامعة نفسها في سنة 2009 م.
17) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1: 177.
18) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1: 65.
19) أبو العباس أحمد المقري، نفح الطيب، تح. إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، 1968)، ج 1: 314.
20) عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تح. عبد الهادي التازي، ط3. (بيروت: دار الغربي الإسلامي، 1987)، 68، 91، 92، 129، 284، 303، 321.
21) أبو عبد الله محمد ابن الأبار، الحلة السّيراء، تح. حسين مؤنس، (القاهرة: دار المعارف، 1985)، ج 2: 208.
22) المقري، نفح الطيب، ج 3: 181.

وقد قمنا بدراسته وتحقيقه ونشرته دار الكتب العلمية[23].

2 - الرسائل

2 - 1 - طريقة جمعها

انتهت إلى ابن عميرة رئاسة صناعة الكتابة والترسّل في عصره، وشهد له بالإمامة فيها فحول الكتّاب والمترسلين من معاصريه ومن جاء بعدهم، فقد وصفه ابن سعيد بقوله: "هو الآن عظيم الأندلس في الكتابة وفي فنون من العلوم"[24]. وقد أنتج عددا هائلا من الرسائل الديوانية والإخوانية، ساعدته في ذلك موهبته البلاغية ومقدرته الكتابية، إلى جانب اتخاذ الترسل حرفة، وشغله خطة الكتابة أكثر أوقات حياته لدى الكثير من الأمراء والخلفاء. وكانت ظروف عمله من أكثرها استدعاء للمكاتبات والمراسلات بحكم ما ساد ذلك العصر من فتن واضطرابات[25].

ويبدو أن ابن عميرة لم يكن يهتم بجمع رسائله وتدوينها، رغم كثرة المعجبين بها والراغبين فيها من أدباء عصره، مردّ ذلك إلى نظرته المتواضعة إلى هذه الرسائل التي لم تكن تستحق التدوين والطلب في نظره، وإنما جمعها غيره من تلاميذه ومن أتى بعدهم. ومن هؤلاء صديقه الأديب البلنسي أبو جعفر أحمد بن محمد بن شنيف العقيلي الذي لازم ابن عميرة في إفريقية وجمع مجموعة من تلك الرسائل التي آلت إلى ابن عبد الملك المراكشي، وهي التي نجدها متفرقة في كتابه الذيل والتكملة في تراجم مختلفة، وفي ذلك يقول: "خلف فوائد جمة وتعاليق أدبية كثيرة وجملة وافرة من كلام أبي المطرف بن عميرة نثرا ونظما، جالسته طويلا وانتفعت به، وصار إليّ معظم ما قدم به بعد وفاته سنة 664هـ/1265م"[26].

كما أورد مجموعة من هذه الرسائل أبو العلاء محمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي الشهير بابن المرابط في كتابه زواهر الفكر وجواهر الفِقر. ونجد طائفة أخرى من رسائل ابن عميرة في مخطوط لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب الذي جمعه مؤلف مجهول من خواص الرئيس أبي عثمان سعيد، وغير ذلك من المصادر.

ولكن العمل الجاد في سبيل جمع هذه الرسائل فهو الذي قام به، في القرن الثامن الهجري، الأديب الشهيد ابن هانئ السبتي الذي نهض بجمع آثار ابن عميرة النثرية والشعرية ودوّنها ورتبها في كتاب من سفرين سمّاه: **"بغية المستطرف، وغنية المتطرف، من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرّف"**. ولم يُشِر إلى هذا الكتاب إلا ابن الخطيب في الإحاطة وبعض من نقل عنه كالمقري في النفح، وقد أشار إليه في موضعين: الأول بمناسبة ترجمته لابن عميرة، والثاني عند ترجمته لابن هانئ السبتي جامع الكتاب[27].

وقد وصلتنا لحسن الحظ بعض النسخ المخطوطة لهذا الكتاب التي لم ترد فيها، مع الأسف، الإشارة إلى اسم جامع الرسائل ولا العنوان الذي ذكره ابن الخطيب وذلك بسبب البتر الذي تعرضت له هذه النسخ من الأطراف. ولكن ثمة ما يؤكد قول ابن الخطيب عن كتاب بغية المستطرف أنه يقع في سفرين، فقد وردت في عنوان الورقة 84 من السفر الأول من نسخة خزانة زاوية بلعمش بتندوف، تعليقا على تكرار فصل من رسالة جواب أهل سلا على كتاب بيعة تلمسان للرّشيد الموحدي، العبارة التالية: "ذكِرَ بعض هذه الرسالة في السفر الثاني من هذا التأليف". كما وردت في هامش الورقة 13 من السفر الثاني من نسخة ك 232، تعليقا على تكرار رسالة زيان بن مردنيش صاحب مرسية إلى الأمير الحفصي، العبارة التالية: "تكررت بعد ثبوتها كاملة في السفر الأول هذه الرسالة".

أمّا عن جامع الرسائل فهو أبو عبد الله محمد بن علي بن هانئ اللّخمي السبتي المعروف باسم جدّه، أصلهم من إشبيلية. قرأ على الأستاذ العلاّمة أبي إسحاق الغافقي، وعلى الأستاذ النحوي أبي بكر بن عبيدة واعتمد عليه، وأخذ عن الإمام الصالح أبي عبد الله

23) أبو المطرف أحمد ابن عميرة، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، تح. محمد بن معمر، ط 1. (بيروت: دار الكتب العلمية، 2014).
24) ابن سعيد المغربي، المُغرب في حلى المغرب، تح. شوقي ضيف، (القاهرة: دار المعارف، 1964)، ج 2: 363.
25) بن شريفة محمد، أبو المطرف، 254.
26) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 2: 431. وقد ذكره ابن عميرة في إحدى رسائله وحلاّه فيها قائلا: صاحبنا الوزير الفقيه أبو جعفر بن شنيف. ابن عميرة، الرسائل، 238.
27) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1: 65، ج 3: 145. المقري، نفح الطيب، ج 6: 246.

بن حريث. كان إماما في علم العربية مبرّزا متقدما فيه، حافظا للأقوال، مستوعبا لطريق الخلاف، مستحضرا لحجج التوجيه، لا يشق في ذلك غباره، أديبا بارعا، فائق الترسّل، متوسط النظم، سهل مقادة الكلام، بارع الخط، مشاركا في الأصلين، قائما على القراءات، كثير الاجتهاد والعكوف[28]. وعن صفاته الخلقية يضيف المصدر نفسه أنّه كان فريد دهره في سموّ الهمّة، وإيثار الاقتصاد والتحلّي بالقناعة، وشموخ الأنف على أهل الرّياسة، مقتصرا على فائدة ربع له ببلده، يتبلّغ مع الاستقامة، مع الصّبر والعمل على حفظ المروءة وصون ماء الوجه، مليح الخلق، ظاهر الخشوع، قريب الدّمعة[29].

ترك مجموعة من الكتب، منها كتاب "شرح التسهيل لابن مالك" وهو أجلّ كتبه لأنّه أبدع فيه وتنافس الناس فيه. وكتاب "الغرّة الطالعة في شعراء المائة السابعة". وكتاب "إنشاد الضّوال وإرشاد السّوال في لحن العامة"، وهو كتاب مفيد. وكتاب "قوت المقيم". وأرجوزة في الفرائض[30]. وله ديوان شعر أورد بعضه ابن الخطيب في الإحاطة. وعن وفاة ابن هانئ السبتي يقول ابن الخطيب: توفي بجبل الفتح والعدو يحاصره، أصابه حجر المنجنيق في رأسه فذهب به تقبّل الله شهادته ونفعه[31]. ومن المعروف أنّ نصارى قشتالة بقيادة ملكهم فرناندو الرابع كانوا قد انتزعوا جبل الفتح (جبل طارق) من المسلمين في سنة 709 هـ/1309م، فكان لسقوطه وقع عميق في الأندلس والمغرب معا، فقد كان باب الأندلس من الجنوب وصلة الوصل المباشر بين العدوتين، ولم يسترجعوه من النصارى إلاّ في أواخر عام 733 هـ/1333م[32] تاريخ استشهاد ابن هانئ.

إنّ الطريقة التي جُمِعَت بها رسائل ابن عميرة في النسخ المخطوطة التي وصلتنا لم تكن من وضع صاحبها، فهو لم يكن يهتم بجمعها وتدوينها أصلا، مصداق ذلك ما أجاب به مَن سأله بعض رسائله قائلا:

وإنما هي فِقَرٌ ضئيلة حقيرة، تودّ الذمم أنها منها فقيرة، كما أن كل خاطر يتمنى أنها صفرت من نبلها جعابه، أو ظفرت بغير نبتها شعابه، وإنما يرى منهن بنات فكر لا قرّة فيهن لعين الوالد، ولا نظر لهنّ أولى من نظر الرّائد، فإن سألت أو سئلت، بأي ذنب قتلت، قلنا لأنها خبيئة يظهر عليها أفنها، وخطيئة كفارتها دفنها... ولا شيء أولى بالشوهاء من الخدر، أو جهاز طهوره بالماء والسّدر، ومن يرى هذا الرأي فيما يولد بفكره، ويؤلف من فِقَرِه، إن أجاب الخاطب فقد عقّه، وإن منعه فحينئذ أعطاه حقّه، ويعلم الله أن هذا المطلوب ضالة من فنائي ندّت، وبرأيها دوني استبدّت، وقد بعثت في طلبها الرّوّاد، ونفضت عنها البياض والسّواد، فما برقت بها أسرّة طالب، ولا اجتمعت منها درّة حالب، وسأعيد الطلب ما أمكن الوجدان، وإن قالت نافرة عنّي كما تدين تدان، والولي المبارك يقبل اعتذاري، جزاء بما عصيت له اختياري[33].

واضح من النّص أنّ ابن عميرة كان يرى أنّ هذه الرسائل لا تستحق التدوين والطلب، وشبّه موقفه هذا من بنات فكره بموقف بعض أعراب الجاهلية الذين كانوا يئدون بناتهم. والذي يحكم هذا الحكم على آثاره وبنات أفكاره وينظر إليها هذه النظرة، فلا غرابة أن يمتنع عن تلبية رغبة الطالب، ما دامت ليست كفؤا للخاطب في نظره، ومن ثمّ الاعتذار إلى هذا السيّد الذي كتب إليه يسأله بعض رسائله بخروجها من يده. وهذا في الحقيقة تواضع من ابن عميرة، لأنّ رسائله لم تكن كما وصفها، ولكنها كانت تمثّل ذلك الأدب الأندلسي الرّفيع الذي شهد له به فحول وأدباء عصره.

وباستثناء إشارة ابن الخطيب، ومن نقل عنه، إلى تدوين ابن هانئ السّبتي لرسائل ابن عميرة في كتابه الذي سمّاه "بغية المستطرف وغنية المتطرف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف"، كما سبق أن ذكرنا، فإنّنا لم نقف مع الأسف في المصادر الأخرى على ذكر لهذا الكتاب يساعدنا على تحديد قدره وتعيين مبدأه ومنتهاه، ومنهجية عرضه للرسائل والهدف من جمعها، وكيف تمكّن من ذلك، والمصادر التي تحصل من خلالها على هذه الرسائل، وغيرها من القضايا التي تهتم بها المصادر التي

28) المصدر نفسه، ج 3: 143.
29) المصدر نفسه.
30) أحمد ابن حجر العسقلاني، الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1966)، ج 4: 210
31) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3: 152.
32) عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ج 7: 302.
33) ابن عميرة، الرسائل، 113.

تعنى بفهرسة الكتب. لذلك سوف نعرض للمنهج الذي اتبعه ابن هانئ في هذا الكتاب بالشكل الذي وصلنا.

لم يسلك ابن هانئ في تدوين رسائل ابن عميرة مسلكا واضحا، ولم يلزم نفسه بمنهج محدّد في عرضها، وهذا ما جعلنا نسجّل الملاحظات التالية حول هذه القضية:

- التصرّف في الكثير من الرّسائل بالحذف أو بالاختصار والاكتفاء بفصول منها. وتعتبر الرسالة رقم (146) التي تحمل عنوان "وفادة النفس السّالكة شعاب الرّجاء، إلى الحضرة المالكة رقاب الأعداء"[34]، والتي خدم بها ابن عميرة الأمير الحفصي، أطول رسالة احتفظ بها جامع الرسائل.

- عدم ترتيب الرسائل ترتيبا زمنيا حسب تاريخ كتابتها سيما وأنّ ابن عميرة قد استغرق نشاطه الكتابي وقتا طويلا.

- عدم ترتيب الرسائل حسب الأبواب والموضوعات. فالرّسالة الدّيوانية تليها رسالة إخوانية أو خطبة دينية، ورسالة في الشكر تتبعها رسالة في العزاء، وأخرى في العتاب تأتي بعدها رسالة في التهنئة.

- حذف التواريخ في أغلب الرّسائل والقليل منها هو الذي احتفظ فيه بتاريخ كتابتها.

- التصرّف في كثير من الرّسائل في اسم المكان الذي صدرت منه الرّسالة، واسم الشخص المكتوب إليه، واستبدالهما بكلمة فلانة وفلان. ولسنا ندري أكان هذا التصرّف من جامع الرسائل أم من ناسخها.

- عدم التزام التتابع والتسلسل في إيراد الرّسائل التي كتبها ابن عميرة إلى شخص واحد، فمثلا نجد الرسائل الكثيرة التي كتبها إلى أبي عثمان سعيد صاحب منورقة متفرّقة في ثنايا الكتاب.

- تكرار بعض الرّسائل أو فصول منها في الكتاب، وهو ما أشار إليه جامع الرّسائل في موضعين.

2 - 2 - الرسائل الدّيوانية الأندلسية:

عرفنا من خلال تقديمنا لحياة ابن عميرة أنّه قضى شطرا كبيرا من حياته في ممارسة وظيفتي القضاء والكتابة الدّيوانية متنقلا بين المدن والحواضر الأندلسية والمغربية. فكتب عن الوالي الموحدي السيّد أبي زيد عبد الرحمن والأمير زيان بن مردنيش والأمير ابن هود وابن خطاب بالأندلس، ثم في بلاط الموحدين بمراكش، لينتهي به المطاف إلى دولة الحفصيين بتونس. وقد بقي لنا من رسائله الدّيوانية عدد كبير، منها ما احتوى عليه كتاب الرسائل، ومنها ما ورد في مصادر أخرى.

إنّ الرسائل الديوانية الواردة في كتاب الرسائل متنوّعة، فمنها ما كتبه عمّن خدمهم من ولاّة وأمراء وملوك عصره، ونوع آخر من الرسائل كتبه إلى ملوك وأمراء ووزراء في مناسبات رسمية، وهناك نوع ثالث من الإنشاء البياني برز فيه ابن عميرة وهو البيعات، والنوع الأخير هو العهود والظهائر.

أمّا عن نشاط ابن عميرة الدّيواني المتعلق بالأندلس فقد ارتبط بظروف وأحوال سياسية وتاريخية مضطربة عرفتها نهاية الموحدين وما نجم عنها من أحداث. فمن المعلوم أنه في منتصف شهر صفر سنة 609هـ/جويلية 1212م قد حلت بالمسلمين في الأندلس نكبة مروّعة وهزيمة كبيرة في معركة العقاب على يد قوات الممالك الإسبانية المسيحية وحلفائها الذين حشدتهم البابوية. وكانت خسائرهم فادحة جدا، وهلك معظم الجيش الموحدي، ولم ينج الخليفة الموحدي الناصر مع عدد قليل من حرسه إلا بأعجوبة. وخلفت هذه الهزيمة في النفوس آثارا لا تمحى، واستقرّ في معظمها شعور بأن الأمر قد ضاع ولا سبيل إلى تلافيه. وفي أيام المستنصر خامس الخلفاء الموحدين (610- 620هـ/1213-1223م) تلاشت بقية الأمل في الموحدين، فقد نجم لهم بنو مرين وبدأوا

34) ابن عميرة، الرسائل، 319.

معهم صراع المصير في المغرب، وكان عليهم أن يتجرّعوا الكأس نفسها التي جرّعوها للمرابطين من قبل[35].

ولم يعودوا بيتا متحدا تجمعه رابطة واحدة ولكنهم تحولوا إلى أمراء وأشياخ استأثر كل منهم بقاعدة من قواعد الملك الموحدي أو بوظيفة من وظائفه الرئيسية، وظهرت آفة الصراع على عرش الخلافة الموحدية، وأصبح كل واحد منهم يُمنّي نفسه به ويتمنى في ذات الوقت فساد الأمر على من تولاه. فبعد الخليفة المستنصر قام بالأمر أبو محمد عبد الواحد ولكن سرعان ما خرج عليه الخليفة العادل وبويع بالخلافة، ثم قام أبو العلى إدريس المأمون بالأندلس وخرج على أخيه العادل أيضا وكان ذلك ما بين (620-624هـ/1223-1226م).

إن انتشار الخلافة الموحدية وتصدّع أركانها كان له أبلغ الأثر في العدوة الأندلسية التي أصبحت مكشوفة للنصارى ولا يدفع عنها أحد. وأخذ ذلك الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية حول مصير الأندلس يتحدّد بصورة حاسمة، إذ سار التقدم النصراني في ذلك الوقت ابتداء من العقد الثالث من القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي في ثلاث مناطق: الأولى وجهتها غرب الأندلس ويسيطر على مصيرها ملك ليون ألفونسو التاسع، والثانية وجهتها وسط الأندلس ويسيطر على مصيرها ملك قشتالة فرناندو الثالث، بينما اختص ملك قطلونية وأرغون بمصير الوجهة الثالثة وهي شرق الأندلس. ورغم ما كان يسود هذه الممالك من خلاف وما يقع بينها من حروب إلا أنها كانت تنبذ ذلك وتقف صفا واحدا إذا تعلق الأمر بحرب مع المسلمين.

وفي تلك الآونة التي انشغل فيها البلاط الموحدي بالمغرب بخلافاته وحروبه الأهلية، وتخاذل السادة والحكام الموحدون عن تأدية واجبهم الأول في شبه الجزيرة الأندلسية التي سرى إليها دبيب التفكك، وتطلعت اسبانيا النصرانية إلى السيطرة على ذلك التراث المنهار، اهتزت الأندلس لهذه الأحداث والتطورات الخطيرة واضطرمت فيها سلسلة جديدة من الثورات القومية على غرار ما حدث في أواخر العهد المرابطي، فظهر عهد أمراء الطوائف للمرّة الثالثة.

وكان أهل شرق الأندلس، الذين اشتهروا بنزعتهم الانفصالية في تاريخ الأندلس منذ الخلافة الأموية، أول من جاهر بالخروج على الموحدين والثورة ضدهم. فظهر بينهم زعيم من بيت عريق في الزعامة والرياسة وهو الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي سليل بني هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف الأولى، وكان ظهوره في مدينة مرسية حيث اتخذها قاعدة لإمارته التي استمرت من سنة 625هـ/1227م إلى سنة 635هـ1237م. وقد رأى فيه الأندلسيون يومئذ الرجل المناسب لجمع كلمتهم والدفاع عن بيضتهم، مصداق ذلك شعر من مدحه من الشعراء كابن مرج الكحل وغيره. وجاء عنه في أعمال الأعلام أنه "كان شجاعا، كريما حييّا وفيا، متوكّلا عليه، سليم الصدر، قليل المبالاة بالأمور، محدودا لم يُنصر به جيش، ولا وُفِق له رأي لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال واستعداد"[36]. ولعل استخفاف ابن هود بالأمور واستعجاله في لقاء العدو هو الذي دفع ابن سعيد إلى الحكم عليه بأنه "كان عاميا جاهلا، مشؤوما على الأندلس، كأنما كان عقوبة لأهلها، فيه زويت محاسنها وطوي بساطها، ونثر سلكها"[37].

ويضيف ابن الخطيب أن ابن هود ملك مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وغيرها، بحال اجتماع وافتراق، وانتزاء من أهلها عليه وشقاق. وتلقب بالألقاب السلطانية كأمير المسلمين والمتوكل على الله ومعز الدين، ودعا للخلافة العباسية استرضاء للعامة، فبعث إليه الخليفة العباسي بالخلع والمراسيم وسماه مجاهد الدين[38].

وكان ابن هود حين شعر بقوة جمعه وأتباعه في أول أمره زحف على مدينة مرسية وطرد أميرها الموحدي الذي كان يدّعيها لنفسه وهو السيد أبو العباس ابن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن وذلك في شهر رجب سنة 625هـ/1227م. وعلى إثر

35) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1: 22.
36) أبو عبد الله محمد ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تح. ليفي بروفنسال، (بيروت: دار المكشوف، 1956)، ج 2: 278.
37) ابن سعيد المغربي، المغرب، ج 2: 251.
38) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 2: 277.

ذلك خرج إلى لقائه والى بلنسية السيد أبو زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن فهزمه ابن هود واستولى على محلته ولكنه لم يحاول دخول بلنسية وعاد إلى مرسية. ولما ازدادت قوته وكثر أتباعه جدّ في محاربة الموحدين وأعلن انه سوف يحرر الأندلس من سلطانهم. وقد أجمل ابن عذاري محاربة ابن هود للموحدين في الأندلس ومطاردته إياهم في النص التالي:

وأول من طاع لابن هود من بلاد الأندلس أهل مرسية فخرج إليه المأمون في سنة 625هـ/1227م فقابله وقاتله فوقعت الهزيمة على ابن هود، وبعد انصراف المأمون عنه إلى إشبيلية قام بدعوته ابن الرّميمي بمدينة المرية ثم طاعت له غرناطة ومالقة فضعف المأمون عن مصادمته لما كان قد أهمّه من أمر الموحدين بمراكش. فلما استقر المأمون بمراكش واشتغل فيها بما اشتغل، اتقد نار الفتنة بالأندلس واشتعل، وطاعت لابن هود أكثر بلادها ورؤسائها وأنجادها وخلعوا طاعة الموحدين عنها، وقتلوهم في كل بلد منه، وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم[39].

وإلى جوار ابن هود ثار أمير آخر هو أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن الرّئيس أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش، من بيت بني مردنيش الشهير الذي كان بشرق الأندلس قبل دخول الموحدين الذين حفظوا لأفراده بعد ذلك مكانتهم واعتمدوا عليهم. وقد ثار زيان على الوالي الموحدي السيد أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الموحدي أمير بلنسية واضطره إلى اللّجوء إلى صاحب أرغون. وحكم إمارة بلنسية عشر سنوات، من سنة 626هـ/1228م إلى سنة 636هـ/1238م، وفيها تغلّب عليه خايمي الأول ملك أرغون، فخرج منها وظل يتقلب بعد ذلك بين شقر ودانية، ثم تغلب على عزيز بن خطاب في مرسية فحكمها مدّة باسم الحفصيين، ثم أخرجه منها بهاء الدولة ابن هود، وانتقل أخيرا إلى تونس حيث أصبح من رجال دولة المستنصر الحفصي[40].

ومن أمراء الطوائف في شرق الأندلس أثناء هذه الفترة أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب وهو من بيت جليل وأسرة نبيلة في مرسية. كان من الشخصيات العلمية البارزة في هذا العصر، واشتهر بالتديّن والنسك والبرّ والتقوى وكثرة الخشوع، حتى صار في دولة ابن هود شيخ مرسية وصاحب الحل والعقد فيها. ولمّا مات ابن هود تأمّر بمرسية وجهاتها وتولّى أمور الحكم في ظروف صعبة، إذ لم يقم بالأمر حتى قعد لأنّ ولايته لم تتجاوز بضعة أشهر، حيث بويع بالإمارة في الرّابع من شهر محرّم سنة 636هـ/1238م، ثم ثار عليه زيّان بن مردنيش وقتله في 18 رمضان من السنة نفسها[41].

أمّا باقي أمراء الطوائف في هذه الحقبة فمنهم بنو عيسى الخزرجيون في شاطبة، وبنو عصام في أوريولة، وابن أحلى في لورقة وغيرهم. وقد كانت نهاية إمارات الطوائف الثالثة على يد النصارى ولم يبق منها إلاّ دولة بني نصر التي استمرّت بعد ذلك في غرناطة.

وإذا كان هؤلاء الأمراء قد جمعتهم غاية تحرير الأندلس من الموحدين والتصدي للنصارى، فإنّ تلك الثورات والحركات التي قادوها كثيرا ما كان يسودها التنافس والخصام والفتن مثل ما حدث بين إمارتي ابن هود وابن مردنيش بسبب النزاع الذي قام بينهما حول الحدود. ولم تفلح الوساطات بينهما والدّعوات إلى تجنّب الصّدام وتوحيد الكلمة لمواجهة العدو النصراني كتلك التي قام بها أبو بكر عزيز بن خطاب حين كتب رسالة في هذا الشأن إلى الخطيب أبي عبد الله بن قاسم يشير عليه فيها بأن يندب ابن مردنيش للدّخول في طاعة ابن هود ممثل العباسيين[42].

ومن رسائل ابن عميرة الدّيوانية التي خدم بها هؤلاء الأمراء في الأندلس أثناء هذه الحقبة المضطربة، الرّسالة التي كتبها عن والي بلنسية السيد أبي زيد عبد الرحمن إلى الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف المستنصر سنة 620هـ/1223م في شأن لاجئ من

39) ابن عذاري، البيان المغرب، 288.
40) ابن الأبّار، الحلة السّيراء، ج 2: 127. ابن الخطيب، أعمال الأعلام. ج 2: 272.
41) ابن الأبّار، الحلّة السيراء، ج 2: 308. ابن سعيد، اختصار القدح، 146. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2: 274.
42) محمد بن علي ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، تح. حسن محمود فليفل، (الرياض: مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1997)، 63.

زعماء مملكة أرغون وهو أبلاشكة آرطال[43]، (*Don Artal de Alagon* و*Blasco de Alagon*) كما تسمّيه الرّواية الاسبانية. وكان هذا النبيل وصيا على الملك خايمي الأول ثم أصبح من المقرّبين إليه في مملكته، بيد أنّ العلاقة ساءت بينهما وتحولت إلى خصومة، فلجأ إلى بلنسية عند واليها الذي كان قبل السيد أبي زيد وعبّر له عن عزمه ورغبته في اللجوء إلى مراكش، وطلب منه أن يستأذن له الخليفة في ذلك.

ولمّا عاد إلى بلده وأعدّ العدّة لسفره ورجع إلى بلنسية بنيّة الرّحيل إلى مراكش، صادف حلول الوالي الجديد أبي زيد الذي كتب في شأنه هذه الرّسالة إلى الخليفة المستنصر، وقد قضى سنتين بين المسلمين في ظل هذا الوالي، أي ما بين 620- 623 هـ/1223-1226 م، وخدم الموحدين، ثم عاد إلى بلاده أرغون وعفا عنه الملك خايمي. ورغم مكانة هذا النبيل الأرغوني وما له من تأثير في بلاده[44]، وأهمية الخدمة التي عرضها على الموحدين ضد النصارى، إلاّ أنهم لم يحسنوا استغلالها لصالحهم، سيما وأنّ الأجواء السياسية كانت لا تزال غير مستقرّة في مملكتي قشتالة وأرغون. ولم يكن بمقدور الخليفة المستنصر فعل ذلك وهو الذي أخلد إلى الراحة واللهو وآثر طوال مدّة حكمه سياسة الهدنة والسّلم مع النصارى في الأندلس.

وممّا يتعلق برسم هذه الرسالة فهي مفتتحة بلفظ الحضرة كناية عن الخليفة، ويلي ذلك ألقاب الخليفة واسمه ثمّ الدّعاء له والتعبير فيها عن المكتوب عنه بلفظ العبد، واستعمال ميم الجمع في مخاطبة الخليفة للتعظيم، وبعد أن أتى على المقصد ختمها بلفظ السلام، وهي من الرسائل التي استشهد بها القلقشندي في رسوم التعبير عن الخليفة بلفظ الحضرة[45].

واحتفظ لنا كتاب الرسائل بأربع رسائل ممّا كتبه ابن عميرة عن زيان بن مردنيش، أولاها كتبها عنه أثناء إمارته على بلنسية، وهي موّجهة من طرف الأمير المذكور إلى أهل بلنسية سنة 628 هـ/1230م في البشرى بفتح حصن قلبيرة[46]، وقد جاءت مختصرة وخالية من الاحتفال بالألقاب. وفي الفترة التي حكم فيها ابن مردنيش إمارة مرسية كتب عنه ابن عميرة الرسالة التي وجّهها إلى والي بجاية الأمير أبي يحي بن أبي زكرياء الحفصي يعلمه فيها بسفارة الشيخ أبي عبد الله بن الرئيس أبي الحرث الذي كان يحمل بيعة أهل مرسية وشرق الأندلس إلى أبي زكرياء الحفصي[47]. والثالثة موجّهة إلى الأمير أبي زكرياء المذكور ويخبره فيها بانتظام الدّعوة له في شرق الأندلس[48]. والرّابعة موجّهة إليه أيضا ويشير فيها إلى الرّسالة السابقة ويخبره بانقياد حصون شاطبة وإذعان قائدها[49]. والرّسالتان الأخيرتان مفتتحتان بعبارة الحضرة العلية ونعوتها وألقابها ثم عبارات التحميد والتصلية والترضية عن الإمام المهدي وخلفائه، وبعد ذلك المقصد والدعاء والتعبير فيها عن المكتوب عنه بلفظ العبد.

ومن هذه الرسائل واحدة كتبها ابن عميرة إلى ابن هود عن بعض أتباعه من شاطبة سنة 632 هـ/1234م، يهنّئه بفتح مدينة لبلة وقتل الثائر بها[50]. واسم هذا الثائر محمد بن شعيب بن محفوظ الذي كان من أعيان اشبيلية وفرّ منها إلى لبلة فاعتصم بها وتسمّى بالمعتصم، وذلك عندما غدر ابن الأحمر بزعيمها المتآمر بها ابن الباجي. وهي مفتتحة بلفظ الحضرة ووصفها والدّعاء لها، ثم التخلص إلى المقصد فالختم بحمد الله الذي نصر الراية العباسية والدعاء للمقام العلي المتوكلي، مع متانة في الأسلوب ودقة في الوصف.

وهناك رسالة كتبها عن أبي بكر عزيز بن خطاب لما كان واليا على مرسية من قبل ابن هود، وهي موجّهة إلى العالم البلنسي

43) ابن عميرة، الرسائل، 260.
44) جاء في الرسالة عن مكانة هذا النبيل: وقد تقرّر لدى المقام الكريم أدام الله علوّه، وكبت عدوّه، بأمر أبلاشكة آرطال وما له في البلاد الأرغونية من رعاية في شأوها برّز، ولغايتها أحرز، وكلّ قد كفل صاحب أرغون في الزمان المتقدم كفالة دار أمرها عليه، وألقى زمامها إليه، وتفرّد منها بعبء حمله، وحظ بلغ منها أمله، وكثير من زعماء أرغون ورجالُها أقاربه وفرسانه وكلّ في حبله حاطب، ولإنجاده متى أمكنه خاطب. ابن عميرة، الرسائل، 262.
45) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، 1915)، ج 6: 534.
46) ابن عميرة، الرسائل، 399.
47) المصدر نفسه، 126.
48) المصدر نفسه، 348.
49) المصدر نفسه، 349.
50) المصدر نفسه، 343.

الشيخ أبي الحسن علي بن شلبون[51]، جوابا على رسالة له يقرّر فيها ولاءه وتعلّقه به. وفي هذا الجواب نجده يترضّى عن الخليفة العبّاسي ما قبل الأخير في بغداد وهو أبو جعفر منصور الملقب بالمستنصر.

أمّا الرسائل التي كتبها ابن عميرة عن نفسه إلى أمراء عصره في الأندلس فمنها أربع رسائل موجّهة إلى ابن هود، أولاها كتبها إليه في الشّكر والثناء، أيام كان قاضيا بشاطبة في حدود سنة 631هـ/1233م، جوابا على رسالته التي نوّه فيها بدوره في تنظيم البيعة[52]. والثانية كتبها إليه في السنة نفسها باسم سكان شاطبة يهنّئه بوصول التقليد العبّاسي[53]. والثالثة في التهنئة بشهر رمضان[54]. والرّابعة رفعها إليه إثر مهمّة تفتيشية قادته إلى التحقيق في الشكوى التي قدّمها أهل الحمّة ضد واليهم سنة 634 هـ/1236م[55]. ونجده في هذه الرسائل أقلّ احتفالا بالألقاب ومظاهر الفخامة من التي كتبها إلى الموحدين أو الحفصيين مع التفنن في رسومها حسب مقتضى المقام والحال.

وكتب إلى أبي بكر عزيز بن خطاب رسالتين، واحدة في الشفاعة[56]، والأخرى في التوصية برجل ساءت أحواله[57]. وهما مفتتحتان بلفظ المحل الأعلى لقب المكتوب إليه، ولم نعرف ما إذا كان كتبهما إليه أيام تولّيه مرسية لابن هود أو أيام استقلاله بها. وله رسالة في التهنئة بالخروج من أسر الرّوم إلى الأمير بهاء الدّولة محمد بن محمد بن هود عمّ المتوكل ابن هود[58]. ورسالة إلى الأمير زيان بن مردنيش في الثناء والشكر[59].

أمّا البيعات وهي نوع آخر من آثار ابن عميرة الدّيوانية فمنها رسالتان ممّا كتبه في الأندلس. البيعة الأولى كتبها عن أهل جزيرة شقر وجهاتها إلى الأمير ابن هود بولاية العهد لابنه الأمير أبي بكر الواثق في يوم الخميس الرّابع من شهر ربيع الآخر سنة 629 هـ/ 29 يناير 1232 م[60]. وهي مفتتحة بالحمدلة والتصلية على رسول الله والترضية عن صحابته وسرد نبذ من سيرهم، مع الإشارة إلى اغتصاب الأمويين للخلافة ورجوعها إلى مستحقيها من بني العباس الذين أصبح ابن هود يحكم باسمهم، والإطناب في ذكر أوصاف هذا الأمير (ابن هود) الذي جدّد رسوم الخلافة العبّاسية بالأندلس والقيام بدعوة الخليفة المستنصر العبّاسي. ثم الانتقال بعد ذلك إلى شرح الباعث على هذه البيعة، وأنّ خبرها لمّا انتهى إلى الرّئيس أبي عبد الله ابن الرّئيس أبي سلطان ومن قِبَله من جزيرة شقر وجهاتها من الأعيان والوجوه والقواد والأجناد والكافة قرّروا أن يدخلوا فيما دخل الجمهور، ثم يختتم هذه البيعة بعبارات الدّعاء.

والبيعة الثانية كتبها لأستاذه وصديقه أبي بكر عزيز بن خطاب حين دعا لنفسه بمدينة مرسية وجهاتها في الرابع من شهر محرّم سنة 636 هـ/1238م[61]. وهي كسابقتها مفتتحة بالتحميد والتصلية، ثم ذكر الباعث على هذه البيعة وهو أنّ أصحاب الحلّ والعقد من أهل مرسية وجهاتها بعد تدارسهم وتذاكرهم في شأن بيعة الأمير الواثق ابن هود التي كانت في أعناقهم وخروجه عن شروطها، اختاروا لتقلّد أمورهم والقيام بمصالح خاصتهم وجمهورهم الأمير عزيز بن خطاب الذي احتفل في وصفه بالألقاب المختلفة وذكر موافقته على اختيار الجماعة له وسرور الناس بذلك، وختمها بألفاظ البيعة والدّعاء.

أمّا النوع الرّابع والأخير من آثار ابن عميرة الدّيوانية وهو الظهائر والعهود فإنّ الذي ورد منها في كتاب الرسائل ليس فيه ما يدلّ على أنّها أندلسية بسبب تصرّف جامع الرسائل أو ناسخها في حذف أسماء الأشخاص المكتوب عنهم والذين كتبت لهم وأماكن

51) المصدر نفسه، 364.
52) المصدر نفسه، 264
53) ابن عميرة، الرسائل، 310.
54) المصدر نفسه، 347
55) المصدر نفسه، 372
56) المصدر نفسه، 363.
57) المصدر نفسه، 398.
58) المصدر نفسه، 256.
59) المصدر نفسه، 440
60) المصدر نفسه، 130.
61) المصدر نفسه، 122.

التعيين.

2 ـ 3 ـ الخصائص الفنية

لقد أنتج ابن عميرة عددا ضخما من الرسائل الديوانية والإخوانية حتى انتهت إليه رئاسة صناعة الكتابة والترسّل في عصره، واشتهر في هذا الفن، وشهد له بالإمامة فيها فحول الكتاب والمترسّلين من معاصريه ومن أتى بعدهم، فقد وصفه صديقه أبو الحسن الرّعيني بعلم أعلام الجزيرة وبالتقدّم في الكتابة على أهل زمانه، ومدحه قائلا:

أبا المطرف دعوة من خالص لعلاك غائب ودّه وشهيده
أنت الوحيد بلاغة وبراعة ولك البيان طريفه وتليده
فالنثر أنت بديعه وعماده والنظم أنت حبيبه ووليده[62]

وهو يشير في البيت الأخير إلى بديع الزمان الهمذاني، والعماد الأصفهاني، وأبي تمام، والبحتري. ونعته ابن سعيد بقوله: "شيخ كتاب زماننا وإمام أدباء أهل أواننا"[63].

وقال عنه ابن الأبار: "فائدة هذه المائة، والواحد يفي بالفئة، الذي اعترف بأمجاده الجميع، واتصف بالإبداع فماذا يوصف به البديع"[64]. وهو عند ابن عبد الملك: "علم الكتابة المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدّهور"[65]. أمّا ابن الخطيب فقد أطنب في مدحه ووصف بلاغته وكتابته[66].

أمّا عن الخصائص الفنية التي اتسمت بها رسائله فهي الخصائص نفسها التي عرفت في النثر الفني منذ القرن الرابع الهجري وظلت تتطور بعد ذلك، وكانت سائدة عند كتّاب عصره الذين يمثلون حلقة مهمة ومرحلة متميزة في سلسلة تطور الأدب الأندلسي، وينتمون إلى مدرسة لها طابعها الخاص، هي أشبه ما تكون بمدرسة القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني المشرقية والموازية لها تقريبا من الناحية الزمنية. ثم إن هذه المدرسة هي التي مهدت لظهور جيل من الكتاب عرفهم القرن الثامن الهجري فكانت قدوة مباشرة ونموذجا حيا لهم أمثال ابن الخطيب والشريف الغرناطي وابن شبرين وعبد المهيمن الحضرمي وغيرهم. وفيما يلي الخصائص الفنية التي تميّزت بها رسائل ابن عميرة.

ـ البدء والختام:

لقد شمل الإصلاح والتغيير الذي أحدثه الموحدون في مختلف النظم ديوان الرسائل فأصبحت الكتابة الديوانية على عهدهم ذات رسوم وتقاليد خاصة وطريقة متميّزة عن غيرها، كما وضّح لنا ذلك القلقشندي في حديثه عن المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل المغرب من خلال النماذج التي انتهت إليه، خصوصا رسائل ابن عميرة وابن الجنان، فيذكر أنّها كانت على أسلوبين: الأول أن تفتتح المكاتبة بلفظ من فلان إلى فلان وكان الرّسم فيها أن يقال: "من أمير المؤمنين فلان، ويدعى له بما يناسبه، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم، والترضية عن الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي، ثم يُؤتى على المقصود، ويُختم بالسلام. والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة، وميم الجمع عن المكتوب إليه"[67]. والأسلوب الثاني أن تُفتتح المخاطبة بلفظ أمّا بعد، ويعقبها الحمد لله، ويؤتى على الخطبة إلى آخرها، ثم يتخلص إلى المقصود ويختم بالسلام، أو ذكر المقصود بعد البعدية من غير خطبة[68].

ويضيف المصدر نفسه أنّ هذه الطريقة المغربية في الرسائل الرسمية تنفرد عن نظيرتها المشرقية بأشياء منها: "أنّ المخاطبة

62) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4: 164.
63) ابن سعيد، اختصار القدح، 42.
64) ابن الأبار، تحفة القادم، 29.
65) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج 1: 152.
66) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1: 62.
67) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 7: 30.
68) المصدر نفسه.

تقع للمكتوب إليه بميم الجمع مع الانفراد كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الانفراد، ومنها أنّهم يلتزمون الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم كتبنا بأن يقال: كتبنا إليكم كتب الله لكم كذا، ومنها أنهم يترضون عن الخليفة القائمين بدعوته في كتبهم، ومنها أنهم يذكرون اسم المكتوب إليه في أثناء الكتاب، وكتبهم تختم بالسلام غالبا وربما ختمت بالدعاء ونحوه"[69].

ولم تكن هذه الطريقة التي أفادنا بها صاحب صبح الأعشى مقتصرة على الكتابة في عهد الموحدين وإنما كانت مستعملة أيضا في دواوين الحفصيين ورثة الموحدين، ودواوين الدويلات والإمارات التي قامت في الأندلس بعد زوال الدولة الموحدية، وكما هو معلوم فإنّ ابن عميرة قد اشتغل بالكتابة لدى جميع هذه الدول، لذلك فإننا نجد كل الخصائص والمميزات والرسوم التي أشار إليها القلقشندي مذكورة في رسائله.

ـ الجمل الدّعائية والاعتراضية:

وهي من السمات البارزة في أسلوب ابن عميرة حيث استعملها بكثرة في رسائله الدّيوانية، والمقصود بالجمل الدّعائية تلك العبارات التي تتضمّن الدّعاء بدوام العزّ والسعادة وامتداد السلطان وطول الأجل والسلامة وراحة البال وازدياد القوة وما إلى ذلك من المعاني العديدة. أمّا المعترضة فهي التي تأتي بين الكلام وقد تكون دعائية أيضا في مضمونها.

وقد تميّزت هذه الجمل بالقصر في معظمها إذ لا تتعدّى الجملتين أو الثلاث في أغلب الأحيان، كما أنّها موجودة في جميع رسائله تقريبا. ولعل طبيعة ابن عميرة وميله إلى التديّن ورغبته في دوام المنح والعطاء والعون والحرص على دفع الحسد والوشايات والإبقاء على رباط الأخوة والصداقة والاحترام والتقدير وغيرها من القيم كانت من وراء ذلك.

ـ الاقتباس والتضمين:

والمقصود به الاقتباس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأمثال والحكم وتضمين الشعر، وهو من الأساليب التي استخدمها ابن عميرة كثيرا في رسائله الديوانية. ونجده تارة يشير إلى ما يقتبس، وتارة لا يشير، بل يستعمل مهارته في المزج والتركيب بين أسلوبه والأقوال التي يقتبسها بكل براعة وحذق حتى لا تكاد تعرف تلك الأقوال المقتبسة وكأنّ الكل من صنعه وإبداعه.

ومن النماذج التي تبيّن طريقته في الاقتباس وهي كثيرة قوله: "وأما فلان فقد ورد من القبول أعذب شرب، ثم خطب المودّة منه أكرم خطب، على حين ضنّ بها على الأكفاء من يعضلها، وبعد أن ألقوا أقلامهم أيّهم يكفلها[70]، فلما رآه أكبر وسيلته، وأبرز إليه عقيلته"[71]. وقوله: "وصاحب العجالة فلان جال في بقية الأندلس بحيلة إنسانية، وحلية ساسانية، ثم عبر البحر وأزمع الذهاب لأداء فريضة الحج، والبلوغ إلى مواقف العج والثجّ[72]"[73]. وقوله من رسالة يصف فيها بلاغة أسرة بني عياش: "فأخذ كتابها بقوّة، واحتاز تراثها بأشرف أبوّة، ومن يجاري أهلَ بيتٍ بلاغةُ آلِ وهبٍ من هباتهم، ومُقل بني مقلة خاشعة لهيئاتهم، وابن المقفع عندهم فقع بقرقر[74]، والصّابي صباه تعارض منهم بريح صرصر[75]"[76].

ويتبيّن من ظاهرة الاقتباس الأثر الواضح للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في نفس ابن عميرة، فقد كان حريصا على التمسّك بهما والاعتماد عليهما في نواحي التعبير وأساليب التخاطب لأنّهما الأساس الأول والقاعدة المتينة التي استمدّ منها ثقافته

69) المصدر نفسه.
70) اقتباس من: القرآن الكريم. آل عمران: 44.
71) ابن عميرة، الرسائل، 136.
72) اقتباس من الحديث الذي رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا سُئل أيّ الحج أفضل قال: "العجّ والثجّ". سنن الدارقطني.
73) ابن عميرة، الرسائل، 268.
74) اقتباس من المثل العربي القائل: "أذلّ من فقْع بقرقرة". أبو الفضل أحمد الميداني، مجمع الأمثال، ط 2. (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، دون تاريخ)، ج1: 395.
75) اقتباس من: القرآن الكريم. الحاقة: 6.
76) ابن عميرة، الرسائل، 176.

ومعارفه وأفكاره.

ـ التنويع والمزاوجة بين الشعر والنثر:

إنّ كبار كتّاب العصر الموحدي هم أنفسهم كبار شعرائه المرموقين ومنهم ابن عميرة، لذلك زاحم شعراء عصره في ميدان القريض ونظم الكثير منه، فقد مزج بينه وبين النثر في رسائله، إذ كان يستهلها أو يدبجها أو يختتمها بشيء منه. إنّ ظاهرة التنويع والمزاوجة بين الشعر والنثر من الظواهر البارزة والسمات الواضحة في رسائل ابن عميرة، كما تعدّ نموذجا طيبا لأدب تلك الفترة، وقد أدرك معاصروه هذه الميزة، فأشار إليها ابن عبد الملك بقوله: "وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالإشارات إلى التواريخ"[77]. وقد يكون حرص ابن عميرة على إظهار تفوّقه في فنّي المنظوم والمنثور، وحاجته إلى مزيد من العاطفة والوجدان، لأنّهما في الشعر أكثر منهما في النثر، وإعطاء صورة واضحة عن ارتباط هذين الفنّين وتلازمهما وغيرها من الأسباب، من دواعي لجوئه إلى هذه الظاهرة.

أمّا عن القيمة الفنّية لشعر ابن عميرة فقد ذكر ابن عبد الملك أنّ طائفة من أهل طبقته كانت تستقصر منظومه وتدفعه عن الإجادة فيه، ولكنه لا يوافقهم على ذلك ويصفه بالبلاغة والبراعة مع اعترافه بأنّ شعره ينزل عن مستوى نثره[78]. وقد أشار ابن عميرة نفسه إلى هؤلاء الذين انتقدوا عليه جمعه بين النثر الممتاز والنظم الجيّد حين قال من رسالة: "كذب من قال اثنان لا يجتمعان لذي أدب، رسائل فاخرة مع شعر منتخب"[79].

ـ استخدام المصطلحات العلمية والفقهية:

كان ابن عميرة من العلماء والفقهاء وذوي الثقافات العامة والثقافة الدينية بشكل خاص، وعلى العموم فإن أثر هذه الثقافة الواسعة والمتنوعة في أسلوبه وكتابته الأدبية يبدو واضحا والمسحة العلمية عليه تظهر جلية، وهذا المعنى هو الذي نبّه إليه أحد المعجبين به والدارسين لكتابته وهو الغبريني حين قال:

والناس يتداولون كتبه ويستحسنونه ويؤثرونه على كتب غيره ويفضلونه، وبالواجب علم الله أن يكون كذلك لسلوكه حسن منهجه الذي هو فيه أول سالك، وما رأيت من الكتّاب ما أعجبني مثل كتب الفقيه أبي المطرف إلا كتب أبي جعفر بن عطية، والكتّاب كثير، وكُتب هذين الرجلين عندي مقدم على غيرهما، والذي أوجب تقدم الفقيه أبي المطرّف في كتابته إنما هو أن الرجل من أهل العلم فكتابته علمية أدبية، وكتابة غيره مقتصرة على نوع من الأدب، وهذا المعنى هو الذي تميّز به عمّن عداه، وسبق به من سواه"[80]. كما لفتت هذه الظاهرة نظر ابن عبد الملك الذي يقول: "وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالإشارات إلى التواريخ ويودعه إلماعات بمسائل علمية منوعة المقاصد تشهد بتمكنه من المعارف على تفاريقها[81].

ومن ذلك على سبيل المثال قوله:

والرأي في حاضرة البحر إن كنت محوته من خاطرك فبالغ في المحو، وقد سمعت التسبيح فكيف تتمادى في السّهو، والرأي الآخر فيه لا محالة تعذّرٌ، ثم إنّ الإقدام عليه تهوّرٌ، اللهم إلاّ بعد أجل كأجل المعترض، ونظر يميّز بين ما بالذات وما بالعرض، ومقدّمات علاجها عويصٌ، واثباجها ما عن الإشكال فيه محيصٌ، وهذا موقف يطول فيه القول، وفريضة يدخلها العول، وما كلّ غاية يضح طريقها، ولا كل صلاة يصحّ تلفيقها[82].

77) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 1: 152.
78) المصدر نفسه، 177.
79) ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، 216.
80) الغبريني، عنوان الدراية، 251.
81) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 1: 152.
82) ابن عميرة، الرسائل، 273.

وقوله:

من فلانة والدّهر وإن أجرى أمره على أن المستقيم أقصر الخطوط، والمستذقّ هو رأس المخروط، وأنّ الكثير في الأعداد غير التام، والحسناء في المعتاد غير خالية من الذام، فإنّه رّبما فاء، وراجع الوفاء، ورتّب المسبّب على سببه، وصفح للقرن على سلبه، فهو كاسر جابر، ومستقيم جائر، فقد يقع منه الملائم، ولا ينصفه في لومه اللاّئم، وأنا معتد من أخي حفظه الله بخير الأخلاء، منجذب نحوه انجذاب الأشياء باضطرار الخلاء"[83]. وقوله: "وكيف غاب عن سيّدي أن هذا المعنى حوله كانت الدّندنة، ومن أجل إسناده وُصِلت العنعنة، فالآن أبطل النص كل قياس، وأمكن الجهر على رأي أبي نواس[84].

ـ المحسنات اللفظية:

والمقصود بها المحسنات البديعية بمختلف أشكالها وألوانها، وهي من الخصائص الفنّية التي أسرف ابن عميرة في استخدامها لأنّها كانت مقياسا مهمّا من مقاييس الجودة والتفوّق لأدب ذلك العصر نظمه ونثره. ومن عناصر الزخرفة اللفظية السجع وهو توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد، ويكون في النثر كالقافية في الشعر[85]. وهو من الظواهر التي عني بها الأدب العربي منذ القديم حتى صار فنّا يقصد لذاته فيكون له أثر في تزيين الكلام وتحسينه، وكان للأندلسيين باع طويل في استعماله ولكنهم لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك، إذ تباينت حظوظهم بين الإجادة والتقصير.

ولابن عميرة نظرية خاصة به في السجع أشار إليها في كتابه التنبيهات بقوله: "وقصر الأسجاع محتقر مخل، وطولها المتفاوت مرذول ممل، فتكون وسطا بين الإفراط والتفريط، والمساواة بينهما عدل لكن لا كل المساواة بحيث تخرج إلى الأوزان الشعرية"[86]. وقد عمد إلى تطبيق هذه القاعدة في رسائله بشكل واضح، ورغم احتقاره للأسجاع القصيرة والطويلة إلاّ أنّه لم يستطع تجنّبها في نثره فكان يلجأ إليها في بعض الأحيان بل هو إلى الأسجاع الطويلة أقرب.

ويعدّ الجناس من ألوان الزخرفة اللفظية المستعملة بكثرة في رسائل ابن عميرة، ومنه التام وهو تشابه لفظتين في نوع الحروف وعددها وهيأتها وترتيبها، وغير التام وهو ما فقدت فيه إحدى الشروط السابقة. وإذا كان النوع الأول يرد من حين إلى آخر عند ابن عميرة، فإنّه كان لا يكاد يستغني عن الثاني في زخرفة ألفاظه، والأمثلة على ذلك كثيرة جدّا ويمكن ملاحظتها في أغلب الرسائل حيث أشرنا إليها في الهوامش.

ومن ألوان البديع التي استخدمها ابن عميرة أيضا في تزيين المعاني وتحسين العبارات، الطباق وهو الجمع بين المعنى وضدّه في الكلام، وكذلك المقابلة وهي الإتيان بمعنيين أو أكثر ثم بما يقابلها على الترتيب.

الخاتمة

يتجلّى من حصاد الفقرات السابقة ما يلي:

- يُعتبر أدب الرسائل لونا من ألوان النثر الفني الجميل، وهو منظوم ومنثور، ومن المنثور الرسائل الديوانية والإخوانية.

- عاش ابن عميرة حياة إدارية وعلمية حافلة بالأعمال وزاخرة بالأحداث، ولكنها كانت حياة مضطربة متقلبة وهي ظاهرة عامة اتسمت بها حياته في كل أطوارها.

- مواكبة رسائل ابن عميرة لمظاهر الحياة السياسية الأندلسية وجاءت انعكاسا لها بكل أبعادها.

- انتهت إلى ابن عميرة رئاسة صناعة الكتابة والترسّل في عصره، وشهد له بالإمامة فيها فحول الكتّاب والمترسلين من معاصريه

83) المصدر نفسه، 278.
84) المصدر نفسه، 434.
85) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، (بيروت: دار إحياء العلوم، 1998)، 362.
86) بن شريفة محمد، أبو المطرف، 218.

ومن جاء بعدهم.

- يمثّل ابن عميرة حلقة مهمة ومرحلة متميزة في سلسلة تطور أدب الرسائل الأندلسي الذي بلغ، في عصره، أوج تطوره من كل النواحي، واكتمل بناء مدرسته التي أصبح لها طابعها الخاص.

- لم تكن رسائل ابن عميرة على مستوى واحد من حيث الإيجاز والإطناب، فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة وظروف كتابتها.

- حرص ابن عميرة على الاقتباس في رسائله من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتضمينها الأخبار والأمثال والحكم.

- إنّ ظاهرة التنويع والمزاوجة بين الشعر والنثر من الظواهر البارزة والسمات الواضحة في رسائل ابن عميرة، إذ كان يستهلها أو يدبجها أو يختتمها بشيء منه، وهي نموذج طيب لأدب تلك الفترة.

- اشتهر ابن عميرة بالكتابة المتأنّقة، وأكثر من استعمال المحسنات البديعية في رسائله، وقد كان السجع والازدواج والجناس من أكثر المحسنات البديعية شيوعا في رسائله حتى صارت له نظرية خاصة به في السجع.

المراجع:

1- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد. تحفة القادم. تح. إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986.

-----، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1967.

-----، الحلة السّيراء. تح. حسين مؤنس. ج 2. القاهرة: دار المعارف، 1985.

2- ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد. الإحاطة في أخبار غرناطة. ج 1. بيروت: دار الكتب العلمية، 2002.

-----، أعمال الأعلام. تح. ليفي بروفنسال. ج 2. بيروت: دار المكشوف، 1956.

3- ابن خلدون، عبد الرحمن. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. ج 7. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.

4- بن شريفة، محمد. أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره. الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1966.

5- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك. المن بالإمامة. تح. عبد الهادي التازي، ط3. بيروت: دار الغربي الإسلامي، 1987.

6- ابن عميرة، أبو المطرف أحمد. تاريخ ميورقة. تح. محمد بن معـمر. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 2007.

-----، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية. تح. محمد بن معـمر، ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية، 2014.

7- ابن المرابط، محمد بن علي. زواهر الفكر وجواهر الفقر. تح. حسن محمود فليفل. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1997.

8- التجاني، أبو محمد عبد الله. رحلة التجاني. تونس: المطبعة الرسمية، 1958.

9- الشنتريني، علي بن بسّام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تح. إحسان عبّاس. ق1/مج1. تونس: الدار العربية للكتاب، 1975.

10- الصفدي، خليل بن أيبك. الوافي بالوفيات. ج 7. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000.

11- العبدري، أبو عبد الله محمد. رحلة العبدري. تح. محمد الفاسي. الرباط: وزارة الشؤون الثقافية، 1968.

12- عباس، إحسان. تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. عمان: دار الشروق، 1997.

13- عبد النبي، فايز. أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ط1. عمان: دار البشير للنشر والتوزيع، 1989.

14- العسقلاني، أحمد ابن حجر. الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ج 4. القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1966.

15- الغبريني، أبو العباس. عنوان الدراية. تح. رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1981.

16- القلقشندي، أبو العباس أحمد. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ج 6. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، 1915.

17- القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة. بيروت: دار إحياء العلوم، 1998.

18- زكي، مبارك. النثر الفني في القرن الرابع الهجري. بيروت: دار الجيل، 1975.

19- المالكي، ابن فرحون. الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب. ج 1. القاهرة: دار التراث، 1972.

20- المغربي، ابن سعيد. اختصار القدح المعلى. تح. إبراهيم الأبياري. القاهرة: دار الكتاب المصري، 1980.

21- المغربي، ابن سعيد. المُغرب في حلى المغرب. تح. شوقي ضيف. ج 2. القاهرة: دار المعارف، 1964.

22- المراكشي، ابن عبد الملك. الذيل والتكملة. تح. محمد بن شريفة. ج1 وج2. بيروت: دار الثقافة، 1973.

23- المراكشي، ابن عذاري. البيان المغرب (قسم الموحدين)، تح. إبراهيم الكتاني وآخرون. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985.

24- المقري، أبو العباس أحمد. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح. إحسان عباس. ج1. بيروت: دار صادر، 1968.

25- الميداني، أبو الفضل أحمد. مجمع الأمثال، ط 2. ج 1. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، دون تاريخ.